الثقافة السياسية في الدول العربية بين الموروث وإمكانية التغيير

الدكتورة: دلال بحري

قسم العلوم السياسية

جامعة باتنة – الجزائر

الملخص

إن الثقافة السياسية في الدول العربية هي نتاج تطورات وتراكمات قد حدثت في مجتمعاتنا العربية على مدى عقود طويلة، وأصبح من أهم معالمها رفض التغيير، ومما لا شك فيه أن هذه الثقافة تأثرت بالأحداث التاريخية القديمة وتبلورت وتطورت حديثا في إطار أنظمة ديكتاتورية غابت عنها الممارسة الفعلية للديمقراطية

سنتناول أهم المحطات التي مرت بها الثقافة السياسية العربية وهل ساهمت الانتفاضات الأخيرة في تشييد ثقافة سياسية جديدة متأصلة؟

Abstract

The political culture in the Arab countries is the product developments and accumulations have occurred in Arab societies for decades, and it has become the most important landmarks refused to change, and is no doubt that this culture affected ancient historical events and crystallized newly evolved under the dictatorship of the systems were absent for effective democratic practice

We will discuss the most important channels through which the Arab political culture and whether the recent uprisings have contributed to the construction of a new political culture is rooted?

مرت الدول العربية بجمود في الفكر السياسي، وحقبة طويلة أدت إلى تغييب الفرد العربي عن معترك السياسة، حاولت الدولة القطرية أن تنتهج التحديث، من خلال نماذج عدة مستوردة، كالاشتراكية، والجمهورية، والرأسمالية، لكنها فشلت في استثمار تلك النماذج، لأنها لم تنبع من ذاتية وخصوصية المنطقة العربية، وبذورها لا تتلاءم مع التربة العربية، فكان من الواجب تبيئة تلك النماذج لتتمازج وتتلاءم مع البيئة العربية، ولكن.. أليس هذا ناتجاً عن تراكم زمني سببه أن الفرد العربي لم يتعود فيه على نظام سياسي واضح لتداول السلطة، بل على نظام اقصائي، في المقابل وصلت الأنظمة الغربية إلى مراحل جد متقدمة من الديمقراطية بعد صراع طويل أنتج نماذج اعتمدت على الذاتية والخصوصية.

إن الديمقراطية ليست مجرد مؤسسات سياسية أو انتخابات أو تعددية حزبية، بل هي أيضاً تحولات عميقة في بنية المجتمع وفي الثقافة السياسية السائدة وبالتالي فالديمقراطية هي عملية بناء وتأسيس تبدأ بالإنسان أولاً، وهذا يعني أن مقاربة الديمقراطية في بلد ما يجب ألا تقتصر على المظاهر الخارجية للمؤسسات السياسية، بل يجب الغوص داخل

البنى العميقة للمجتمع وقواه الفاعلة الظاهرة والخفيفة للتعرف عما إذا كانت قد تمثل قيم الديمقراطية أم لا.

فالديمقراطية نهج وأسلوب يُتبع سواء داخل مؤسسات الدولة لتوسيع رقعة الحريات السياسية وتعزيز المشاركة الجماهيرية في صناعة القرار، أو داخل المنظمات غير الحكومية وفي الحياة العامة وفق ضوابط محددة.وهنا نتساءل إذا كانت الديمقراطية كنهج لابد منه في الحياة السياسية العربية، هل أن بنية وتكوين المجتمع العربي مهيأة لاستيعاب استحقاقات الديمقراطية؟

يتضح من ذلك أن الدول العربية تعاني من معضلة اجتماعية وسياسية قديمة، يلزمها وصفة سياسية تسمى بـ «التنشئة والثقافة السياسية»، لتجعل منه قادراً على تبييء تلك النماذج بالشكل الصحيح، وليس تبييئها بثقافة الاستبداد الموروثة فماهي أهم المحطات التي مرت بها الثقافة السياسية العربية وهل ساهمت الانتفاضات الأخيرة في تشييد ثقافة سياسية جديدة متأصلة؟

1 مفهوم الثقافة السياسية

لا شك بأن تحديد المصطلحات والمفاهيم والتعريف بها يعد مدخلاً منطقياً ولازماً لفهم الظاهرة موضوع الدراسة والإحاطة بها، بما من شأنه تجنيب المصطلح مغبة الاختلاط بغيره من المفاهيم والمصطلحات المقاربة والتي قد تبدو لأول وهلة مرادفة له

وبهذا الصدد نجد أن كل من "التنشئة السياسية"، و"الثقافة السياسية"، و"الثقافة العامة" تعد من المصطلحات المترابطة بقوة، إلا أنه على الرغم من ذلك الترابط فإن لكل مصطلح خصيصة أو خصائص تميزه عن غيره سواء من حيث المفهوم أو من حيث الطبيعة أو النطاق. فبينما ينصرف مصطلح "**الثقافة**" بمفهومها العام والمجرد والمطلق إلى منظومة القيم والأعراف والتقاليد والعادات والمؤسسات التي تسود مجتمعاً ما من المجتمعات، وتعمل على توجيه وضبط مسار تفاعلاته المختلفة نجد أن "**الثقافة السياسية**" تشير إلى منظومة القيم والأفكار والمعتقدات المرتبطة بظاهرة السلطة السياسية في المجتمع، والثقافة السياسية على هذا النحو من المفهوم في الواقع تعد جزءً ا من الثقافة العامة، يمكن وصفه بأنه ذلك الجزء الذي يعُنى بظاهرة السلطة السياسية أما "**التنشئة السياسية**"، فيقصد بها تلك العملية التي تنتقل عبرها الثقافة السياسية وبها تستمر ومن خلالها تتغير، وما يرتبط بها من دوائر تربوية وتوعوية وتعليمية، بداءً بالأسرة ومروراً بالمدرسة والنادي والحزب..الخ وانتهاءً بالدولة.

وكلاً من الثقافة السياسية والتنشئة السياسية تعدان معاً من الموضوعات البالغة الأهمية في حياة المجتمعات الديمقراطية المعاصرة، نظراً لما لهما من دور حيوي في تحديد مسار العملية الديمقراطية نجاحاً أو إخفاقاً، وبالتالي رسم معالم وآفاق الحياة الاجتماعية، فإذا كانت الثقافة السياسية تعكس مدى نضوج وتمدن الأفراد بأهمية وضرورة الحياة الجماعية والمصير المشترك، والتي لا يمكن أن تؤسس وفقاً لأطر اجتماعية ضيقة وأفكار ومعتقدات بالية وانتهازية، ورؤى وتصورات مصلحيه قصيرة النظر

والأفق، وإنما وفقاً لأسس ومتطلبات المجتمع المدني المتحضر القائم على التعدد والتسامح والقبول بالآخر واستيعابه لا استبعاده، انطلاقاً من معيار المواطنة والكفاءة والنزاهة ومأسسة السلطة وتجردها لا شخصنتها، وبالتالي الولاء لها لا استعداها، فإن التنشئة السياسية تعد منبع الثقافة ومصنعها بما تنطوي عليه من دوائر تنشئة وتوجيه، وهو حديث ينصب على دور الأسرة والمدرسة والحزب.. وغير ذلك من الدوائر الاجتماعية

يعد مفهوم الثقافة السياسية من المفاهيم الحديثة نسبياً في علم السياسة، إذ يرجع ظهوره إلى عام 1956م عندما استخدمه الأستاذ الأمريكي جابرييل ألموندGabriel A Almond [1] كبعد من أبعاد تحليل [1]النظام السياسي، فكل نظام سياسي عند ألموند، يترسخ حول أنماط محددة من التوجهات التي تضبط التفاعلات التي يتضمنها النظام الاجتماعي، وبالمثل تكون الثقافة السياسية بمثابة التنظيم غير المقنن للتفاعلات السياسية، أي أنها- كما سبق الإيضاح - مجموعة القيم والأفكار والمعتقدات في المجتمع.

والثقافة السياسية على هذا النحو من المفهوم تنطوي على العديد من الملاحظات الهامة، لعل من أبرزها مايلي:

1. تعد الثقافة السياسية محصلة تفاعل التجارب والخبرة التاريخية، والمحددات الجغرافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية، وهي أيضاً تتأثر بالرأي العام، بمعنى أنه إذا اتسم هذا الأخير تجاه قضية محددة بالثبات النسبي يمكّن لقيمة وآرائه أن تتحول إلى جزء من نسق القيم التي تتكون منها الثقافة السياسية.

2. يعد التنوع السابق في روافد الثقافة السياسية أهم ما يميزها عن الأيديولوجيا، فالثقافة السياسية غير ممنهجة، كونها تشتمل على مجموعة من القيم يتكامل بعضها ويتناقض بعضها الآخر، في حين أن الأيديولوجيا ممنهجة وتتميز بدرجة كبيرة من الانتقائية، ومن ثم تتمتع بقدر كبير من التجانس القيمي بمعنى آخر، الثقافة السياسية هي محصلة تطور تاريخي نتيجة تفاعل عدد من العوامل، أما الأيدولوجيا فهي تركيب فكري وعقلي يحرص أصحابة على أن يتسم بالتجانس والاتساق3. على الرغم من أن الثقافة السياسية تعد فرعاً من الثقافة العامة- كما سبق القول- إلا أنها بدورها تتضمن العديد من الثقافات السياسية الفرعية التي تختلف باختلاف الأجيال والبيئات والمهن.

فالثقافة السياسية للشباب تختلف عن نظيرتها لدى الشيوخ، والثقافة السياسية للصفوة تختلف عن مثيلتها للجماهير.

إن الثقافة السياسية هي نتاج تطورات وتراكمات قد حدثت في مجتمعاتنا العربية على مدى عقود طويلة، وأصبح من أهم معالمها رفض التغيير، ومما لا شك فيه أن هذه الثقافة تأثرت بالأحداث التاريخية القديمة وتبلورت وتطورت حديثا في إطار أنظمة ديكتاتورية غابت عنها الممارسة الفعلية للديمقراطية والحرية الفكرية والثقافية رغم كل التحولات التي

(1) G Almond .Afunctional approach to comparative politics »in G almond j coleman ed the politics of developping area .Princelon university 1960¨p64

حدثت وتحدث. في المقابل سادت فلسفة فكرية وسياسية تصارعية تستدل على ذلك من الصراعات التي دارت بين الأحزاب في أكثر من بلد عربي، وهذا ما أضاع وقتا ثمينا على الشعوب العربية وعطلت قدرتها على تطوير الواقع السياسي وإنجاز التنمية الاقتصادية، ومما لاشك فيه أن تلك الصراعات أوجدت بيئة مناسبة لاستمرار الديكتا تورية وهيمنة الفكر الذي لا يقبل الرأي الآخر كل ذلك أدى إلى تأصيل القيم الشمولية وعدم القدرة على التسامح ومواجهة قيم أخرى في ظل نظم تقوم على الأحادية في كل شيء.

2 قيم الثقافة السياسية

تحتوى الثقافة السياسية لأي مجتمع على عدد من القيم السياسية يتراوح مضمونها فى الآتي:

1الحرية والإكراه : حيث أن الثقافة السياسية قد تؤكد على قيمة الحرية وهنا فإن طاعة الفرد للسلطة الحاكمة يكون على أساس الاقتناع وليس الخوف ويكون لدى الفرد إحساس بالقدرة على التأثير في مجريات الحياة السياسية والمشاركة الإيجابية أو قد تؤكد على قيمة الإكراه وفى هذه الحالة فعادة ما ينصاع الفرد للحكومة بدافع الخوف لا الاقتناع ويفتقد الإحساس بالقدرة على التأثير السياسي.

2 الشك والثقة : حيث يعتبر عنصر الشك أو الثقة في السلطة الحاكمة عنصراً أساسياً من عناصر الثقة السياسية ويتوقف مدى ثقة الفرد أو شكه في الحكومة على طبيعة سلوك الحكومة تجاه الأفراد ومدى استجابتها لمطالبهم،كذلك فإن انخفاض الثقة بين الأفراد بعضهم البعض يقلل من ثقة الأفراد في حكومتهم.

3 المساواة والتدرج : فقد تؤكد الثقافة السياسية إما على المساواة بين الأفراد أو على التمييز والتفرقة بينهم وتزداد درجة المشاركة السياسية في المجتمع كلما زاد الإحساس بالمساواة بين أفراده.

4 الولاء المحلى والولاء القومي : ففي المجتمعات التي تعلي من قيمة الثقافة القومية يتجه الفرد بولائه نحو الدولة ككل بما يتضمنه ذلك من شعور بالمسؤولية العامة وإعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة،والاهتمام بالقضايا القومية. أما في المجتمعات التي تعلي من قيمة الثقافة المحلية يتجه الفرد بولائه إلى أسرته أو قبيلته أو جماعته الدينية أو العرقية أو اللغوية على حساب الدولة ويصاحب ذلك غياب الشعور بالمسؤولية العامة والانغلاق على القضايا المحلية والذاتية.

ظهر تآكل الفكر السياسي العربي ومدى ابتعاده عن تطلعات الشعوب العربية من خلال المفارقة بين التغييرات البنيوية التي تحدث والعجز عن تقديم الفكر السياسي المرشد والمتقدم على هذا الحراك المتواصل للانتفاضات العربية أهمية كبيرة غير تلك التي تتعلق بإزاحة الأنظمة التسلطية وتتمثل في التغيرات التي تحددها في الثقافة السياسية السائدة في المجتمعات العربية، لكن قبل أن نعرف أهم التغييرات التي عرفتها الثقافة السياسية في المجتمعات العربية، لا بد أن نعرف واقع هذه الثقافة.

3 الثقافة السياسية العربية الموروثة

إن الثقافة السياسية العربية تميزت بالقصور في العديد من الأوجه أهمها:

1 هيمنة الأدلجة العميقة على العقل السياسي العربي، مما جعله يهتم بالعموميات وينسى التفصيلات.

2 كذلك امتازت بكونها ثقافة محدودة وتابعة، وهي ثقافة سياسية ضيقة وتابعة في معظمها وليست مشاركة، بمعنى تدني درجة الوعي السياسي والمشاركة السياسية وعدم القبول بفكرة المجتمع المدني والتعايش معها بوعي ناضج ومدرك لمؤسساتها وأهميتها.

3 ترتكز الثقافة السياسية العربية على الخصوصية والمؤامرة، فهي تقوم على الخصوصية التي تجعلها غير قادرة على تطوير معايير ونظريات منسقة لضبط العالم من حولها وتنظيمه، أما عقيدة المؤامرة التي تحكم على معرفتنا السياسية بالسطحية والسذاجة وضآلة المردود، وإن الإدراك الخاطئ للعالم الخارجي يقود إلى تشخيص خاطئ للمشاكل.

فالعرب من جهة إما يقدرون إمكانياتهم بمبالغة ويقزمون إمكانيات أعدائهم[1] كما أنهم يرون مجمل السياسة الغربيةهي مؤامرة، ليس لها إلا هدف واحد وهو القضاء على الحلم العربي. أو من جهة أخرى يضخمون قوة الغرب ويقزمون أنفسهم إلى درجة العدم، فينبهرون بكل ماهو غربي إلى درجة الذوبان والانصهار[2].

يمكن قياس قصور الثقافة السياسية العربية إزاء قضيتين رئيسيتين هما: قضية الإنتماء والهوية، والمشاركة السياسية

1. بالنسبة لقضية الانتماء والهوية: (مفهوم المجتمع المدني) في الثقافة السياسية لأي مجتمع في واقع الأمر هي شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة إلا أن هذا الشعور بحد ذاته لا يعد كافياً لتحقيق وحدة هذه الجماعة وتكاملها، وإنما يعتمد ذلك على الإجابة على أسئلة مثل ما هو تصورهم للهدف من وجودهم؟ والأهم من ذلك هو كيف يتصورون تحقيق هذا الهدف؟ وعدم الإجابة الموضوعية على هذه الأسئلة من خلال عملية التنشئة السياسية يؤدي إلى ما يعرف باسم "أزمة الهوية".

وفي هذا السياق نجد أن لمسألة الانتماء في الثقافة العربية مستويات عدة منها مستوى الأسرة الممتدة، ومستوى العشيرة والقبيلة، ومستوى الجماعة الدينية أو الطائفية، ومستوى الأمة والوطن، وهي مسألة طبيعية في كل المجتمعات، إلا أن عدم التناسق بين تلك الأطر والدوائر الاجتماعية أو الانتماءات دون الولاء للدولة ذاتها، وغياب الرؤية لترتيبها قد يؤدي إلى إثارة القلاقل وعدم الاستقرار، بل ورفع السلاح في وجه الدولة، الأمر الذي يشكل ضربة موجعه لمفهوم وفلسفة "المجتمع المدني "وأهدافه، وبالتالي العودة إلى حياة الغاب أو حالة الفطرة الأولى التي يكون فيها البقاء للأقوى كما طرح المفكر الانجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes.

فمفهوم المجتمع المدني لا يمنع أن يعزز المواطن انتماءه إلى جماعته القبلية أو المذهبية بشرط

---

[1] – عبد الله تركماني،،فقر السياسة العربية، الحوار المتمدن العدد 2010/04/3074.25،ص2

[2] عبد الله تركماني، المرجع نفسه،ص3

ألا يكون انتماؤه للدولة محل خيار أو مفاضلة مطلقاً، فالمجتمع الأمريكي مثلاً مجتمع شديد التنوع الثقافي، لكنه في الوقت نفسه يمثل إطاراً تتكامل فيه مختلف الثقافات وتلتقي على حد أدنى من القيم السياسية والاجتماعية، بينما نجد أن نمط الثقافة السياسية العربية في معظمها يتقاطع مع فكرة الدولة ومؤسسة السلطة وتجردها، إذ أنه ما يزال هناك قطاع واسع من الجماهير وبعض القوى السياسية والاجتماعية تجند نفسها للاصطفاف وراء أطر اجتماعية وايديولوجية ضيقة، انطلاقاً من حسابات مصلحيه أنانية وقصيرة النظر.

هذا ما يمكن أن نلمسه بوضوح في حركات التمرد المتكررة في العديد من المناطق في الدول العربية منذ تسعينات القرن العشرين، سواء من حيث التبريرات التي يسوقها أطراف حركة التمرد أو من حيث موقف المعارضة. . هذه المواقف المتمحوره حول الذات في الثقافة السياسية تستقي أسبابها من عوامل عدة، لعل من أبرزها الأمية والجهل المتفشي لدى قطاعات واسعة من الجماهير، والنزعة التسلطية لدى قادات ونخب أحزاب المعارضة المتمترسين وراء ايديولوجيات متزمتة ومتعصبه لم تعد في معظمها تمت بصلة إلى روح العصر ومعطياته

2. <u>أما بالنسبة لقضية المشاركة السياسية</u>

والتي نقصد بها الأنشطة السياسية التي يقوم بها الأفراد بهدف التأثير في العملية السياسية ومنها التصويت في الانتخابات وحضور المؤتمرات والندوات، ومطالعة الصحف، والانخراط في الأحزاب السياسية والاتصال بالجهات الرسمية..الخ فنجد أنها تتصف بالموسمية والشكلية، ولا تعكس في معظم الحالات وعي سياسي محدد، بقدر ما تعكس السعي إلى الحصول على خدمات أو منافع مادية آنية من المرشحين.وهذا الموقف ينسحب حتى على مستوى تواجهات الأحزاب السياسية، التي لاتنظر للعملية الديمقراطية سوى كونها وسيلة مناسبة للانقضاض على السلطة لا بوصفها فلسفة شاملة لمختلف جوانب الحياة وإنما تعكس عقلية انقلابية تعسكر نفسها في موسم الانتخابات لامتداح الديمقراطية واستقطاب الجماهير حتى مرحلة الفرز، ومن ثم يتم العودة إلى حياة السكون والسبات، وهذا المشهد يعد في واقع الأمر جزءً من نادي الديمقراطية العربية .

4 أدوات التنشئة السياسية وأساليبها

بالتحول من مضمون الثقافة السياسية إلى أدوات انتقالها عبر التنشئة السياسية، يمكن القول بأن الفرد العربي ينشط في وسط بيئة ثقافية استبدادية في معظمها ويغلب عليها الجهل والأمية، وليس هناك دور ملموس للمدرسة أو وسائل الاتصال الجماهيرية المكتوبة والمسموعة في عملية التثقيف السياسي، كما لا تمارس الأحزاب السياسية في معظمها دوراً ملموساً في هذا المجال، بالنظر إلى ضعف تغلغلها بين الجماهير، وإذا كان لها من دور فهو يعكس منظورات أيديولوجية متزمته وغير متسامحة بطبعها.

كما أن دور الأسرة باعتبارها الخلية أو النواة الأساسية لتشكيل قيم الفرد ومعتقداته تجاه السلطة، يمكن وصفه بالدور السلبي أو

المعيق، نظراً للأسلوب الديكتاتوري والأمر المتبع في تربية الأبناء وإدارة شؤون الأسرة.

ومن هنا نجد أن الأسرة التي تنشئ أبناءها على احترام آداب الحوار والتسامح مع الآخر، وتشجعهم على إبداء آرائهم ولا تميز بينهم في المعاملة لداعي السن أو الجنس، تخرج عادة للمجتمع مواطنين أسوياء تشبعوا بروح الممارسة الديمقراطية واقتنعوا بأهميتها.

أما الأسرة التي يستبد ربها برأية دون مشاركة الزوجة والأبناء أو التي تميز في المعاملة بين الأبناء، فإنها تنتج إلى المجتمع مواطنين سلبيين أو غير ديمقراطيين

هكذا نجد أن كل هذه الدوائر تتضافر معاً في تغذية الثقافة السياسية الضيقة التي تنعكس سلباً في الوعي المجتمعي بأهمية المجتمع المدني ومؤسسة السلطة والولاء الوطني.

مما سبق يمكننا القول أن الثقافة السياسية السائدة في المجتمعات العربية تمثل أحد أهم معوقات تطور هذه المجتمعات[1].

5 محطات الثقافة السياسية العربية

إذا ما حاولنا تقصي تطوّر الثقافة السياسية، وتزايد الوعي بأهمية المبادئ الإنسانية السامية، تبيّن لنا أنّها مرت بمراحل ثلاث.

أولاً: عصر النهضة

بدأت هذه المرحلة قبل الحرب العالمية الأولى، وقد تميّزت هذه المرحلة بالتفاعل الفطري ما بين النخب العربية والمجتمعات الأوروبية، على كافة الصعد التعليمية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وغيرها. فعلى سبيل المثال، كان معظم رواد ذلك العصر ممن درس في مدارس الإرساليات، أو ممن قام برحلات دراسة أو هجرة قصرية إلى أوروبا، وذلك ابتداءً برفعت الطهطاوي، ومروراً بخير الدين التونسي وجرجي زيدان والأفغاني، وانتهاءً بمصطفى كامل ومحمد عبده وشبلي الشميل. لم تكن نظرة هؤلاء الرواد الأوائل إلى أهداف التغيير أو سبل الإصلاح موحدة، فمنهم المربي والسياسي والكاتب والإسلامي والثوري والقومي والعلماني. والمدقق في سيرة حياتهم يجد أنّهم جميعاً كلّ من منظاره حاول ردم الهوة القائمة بين واقع المجتمعات العربية آنذاك، وقيام دولة عصرية متقدمة، كما هي الحال في المجتمعات الأوروبية.

كان همهم الأوحد الدخول في العصر الحديث. واليوم، حينما ننظر إلى ما قاموا به (وكان في معظمه إصدار صحف أو نشر مقالات أو كتب) نستطيع أن نفهم سبب محدودية تأثيرهم في المجتمع، فقد كانت الهوة كبيرة والمسافات شاسعة ما بين الواقع والرجاء، كما كان حراكهم محصوراً في إطار النخبة المتعلمة من الناس. فعند نهاية هذه المرحلة، لم تكن الشعوب العربية قد نضجت، حيث كانت بحاجة إلى مئة سنة أخرى.

---

[1] عامر ذياب اتميمي الثقافة السياسية. مرجع سابق،ص22

ثانياً: مرحلة الاستعمار

أما المرحلة الثانية، فقد بدأت تقريبا نهاية القرن التاسع عشر وانتهت منتصف القرن العشرين، حينما نالت معظم الدول العربية استقلالها من الاستعمار. فرغم سيطرة المستعمر على البلاد من الناحية العسكرية والاقتصادية والسياسية، أتاح في بعض منها، كمصر وتونس والجزائر ولبنان والعراق، هامشاً ضيقاً من الحرية والعمل الديموقراطي، فساهم ذلك في إنعاش الحركة السياسية، وتقوية الشعور القومي وإنشاء أحزاب شعبية كبرى لأوّل مرة، كحزب الوفد والإخوان المسلمين في مصر، وحزب الدستور الجديد في تونس. وحزب الشعب الجزائري وقد تميّزت تلك الحقبة بإنشاء الدساتير والحكومات والبرلمانات والمجالس والمحاكم، وانتشار التعليم في المدن، مما أسهم في إغناء الثقافة السياسية وبلورتها، أكثر من أي وقت مضى، كما أسهم ذلك في زيادة وعي الناس، واتساع دائرة المثقفين والمتعلمين إلى خارج دائرة النخبة.

وفي ظل مؤسسات حكومية جديدة أنشأها المستعمرون لإدارة البلاد، نشأت كذلك طبقة جديدة من موظفي الدولة والقضاة والمحامين والتجار، طبقة متعلمة ومثقفة ومتوسطة الدخل، كانت على احتكاك مباشر مع ثقافة المستعمر، ونظم الدولة الجديدة. وقد عملت بعض الشخصيات المنتمية إلى هذه الطبقة، وأخرى من خارجها كرجال الدين على إنشاء أحزاب مناهضة، وأخرى موالية للمستعمر، لكنّها كانت كلّها أحزاب تسعى إلى إصلاح البلاد أو إزالة الاستعمار، وتحقيق بعض ما عجز عنه أعلام الحقبة الأولى. ومن الشخصيات المعروفة في تلك الحقبة، سعد زغلول وحسن البنا ومحمد رشيد رضا وطه حسين في مصر،وعبد الحميد بن باديس ومصالي الحاج في الجزائر ورياض الصلح وأنطوان سعادة وشكيب أرسلان في لبنان، وشكري القوتلي وميشيل عفلق وقسطنطين زريق في سوريا، والشيخ الثعالبي والحبيب بورقيبة في تونس، ورشيد عالي الكيلاني في العراق. وقد تميّزت هذه الفترة على نحو خاص بنشوء حركات فكرية وعقائدية، توزّعت ما بين العلمانية والإسلامية، مروراً بالاشتراكية والقومية.

ثالثاً: مرحلة استقلال الدول العربية

أما المرحلة الثالثة، فيمكن وصفها بأنّها كانت مرحلة هزيمة الشعوب وشبابها في ذلك الزمن، على مستوى الثقافة السياسية وتطبيق المبادئ الإنسانية الجامعة. وتعدّ تلك المرحلة الأسوأ على مستوى الحريات العامة وحقوق الإنسان وإقامة دولة القانون. فالشعوب العربية كانت تتطلع، مع بزوغ فجر الاستقلال والتحرر من الاستعمار، إلى بناء دول عصرية يحكمها القانون وأنظمة ومؤسسات ترعى شؤونهم كمواطنين، لكنها فشلت في ذلك للسببين التاليين:

أولاً- لأنّ معظم حركات الاستقلال تحوّلت إلى انقلابات عسكرية، أفقدت الحياة السياسية واجهتها المدنية وبرز دور الجيش في مواجهة أي حركة شعبية يقوم بها الناس .

وثانياً- لأنّ الأحزاب العقائدية التي وصلت إلى السلطة أصبحت أكثر راديكالية بعد ممارستها للحكم، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأحزاب لم تنتشر في بدايات الخمسينيات إلا لأنّها استطاعت أن تجذب شباب القرى والطبقات الفقيرة في المدن إلى خطابها «الجديد» الذي كانت قد بلورته خلال المرحلة السابقة.

وفي هذه الحقبة، صودر كل شيء، تحت حالة الطوارئ الدائمة. فاختفت الأحزاب واضمحلت الثقافة السياسية وخسر العرب التجربة الواقعية والممارسات الحزبية الشعبية - رغم بساطتها- التي طبعت مرحلة الاستعمار. فحينما تختفي التجارب الحزبية المتعددة والحياة السياسية، وتصبح الأبواب الوحيدة المفتوحة هي إما مقارّ الأحزاب الحاكمة أو أبواب السجون أو الطائرات للهجرة القسرية، تتحوّل طاقة الشباب نحو التطرف العقائدي (ديني أو إيديولوجي) أو النتاج الفكري النظري. فكان الاستقلال خطوة إلى الوراء، أرجعت الثقافة السياسية وإنتاجها إلى يد النخب، رغم ارتفاع مستوى التعليم لدى كافة فئات المجتمع.

ومن سمات المرحلة الثالثة أنّ الخطاب والنتاج الفكري والثقافي أكان ليبرالياً أو قومياً أو يسارياً أو إسلامياً أو إصلاحياً كان بمعظمه نتاجاً تجريدياً محضاً، لا يمت إلى التجربة الإنسانية الواقعية بصلة، لذا فشل الخطاب في إحداث أيّ تغييرات في الرؤى الاجتماعية والسياسية والثقافية للشعوب. فمرت عقود طويلة، استُنزفت فيها طاقة جيل كامل ما بين الانعزالية والتقدمية أو الإسلام والغرب، أو ما بين الأزمة والمأزق أو الأصالة والحداثة.

رابعاً: مرحلة الانتفاضات

إذا كانت نتائج ماسبق حال ما وصلنا إليه بعد قرنين، فكيف قامت الشعوب بانتفاضات سلمية وشبه مثالية ضد أعتى الدكتاتوريات في العالم؟ هل تغيّرت الشعوب العربية حقاً؟ وكيف أصبحت الشعوب العربية تنادي بدولة القانون والحرية والعدالة، ولها مطالب وشعارات واضحة كأنما صقلتها السنوات؟ فمن أين جاء الشباب فجأةً بهذه الثقافة التي لمسناها في تحركاتهم وتصريحاتهم وردود أفعالهم على الأحداث؟. ومن أين جاء وضوح الرؤية خلال هذه الانتفاضات، ومن ثم بعد سقوط رأس النظام؟

يتضح أن هناك تغيرقد حدث، وبالتحديد الشباب، كما أنّ الزمان تغير أيضاً. فمن ناحية، لم يشأ الشباب العربي أن ينهزم كما انهزم الجيل الذي سبقه. فلقد كانت النخب في أزمة، لا الشعوب كما كانت تُصوّر. إذ كانت الشعوب العربية تراكم أسباب الانتفاضة ببطء شديد من جيل إلى جيل، حتى اكتمل الوعي والإرادة والعمل اليوم مع الشباب المنتفض. شباب كان قد استوعب كلّ المبادئ الإنسانية وثقافة القرن الواحد والعشرين، في قلبه وعقله. «فالإنسان المعاصر بات يعرف عن نفسه أكثر مما كان يعرف أسلافه. كذلك عن مجتمعه وثقافته وأنظمته السياسية وتاريخه ومعتقداته. وبات يعرف أكثر حقوقه الطبيعية ككائن عاطفي لا يستطيع العيش بالطعام وحده، ولا يستطيع

العيش من دون حقوق معنوية. لقد أدّى ظهور وسائل الاتصال الحديثة إلى تعميم وعي إنساني رفيع هو ثمرة تراكمات كل الثورات عبر العصور» [1].

ومن ناحية أخرى، لقد تغيّر الزمان وأصبحنا نعيش في عصر العولمة والثقافة الكونية. عصر لا تستطيع أيّ من الشعوب إن هي أرادت أو أراد حاكمها المستبد أن تبقى خارجه، إذ أصبحت الأرض بحق، قرية واحدة تتمازج فيها الشعوب والثقافات وتتأثر وتتغير وتتعلم من بعضها البعض بسرعة، وبيسر وبلا حواجز. فكان من الطبيعي أن تنعكس هذه التطورات على نحو كبير على طريقة تفكير الشباب العربي، وتطلعهم إلى المستقبل. لذا، حينما لم يجدوا مصدراً ذاتياً وتجربة حالية لكي يستقوا منها أفكارهم وثقافتهم السياسية، لجأوا إلى غيرهم من الشعوب. فالشباب العربي كان محروماً منها، بينما تنعم بمحاسنها شعوب أخرى هو على احتكاك مباشر معها[2].

واليوم مع دخولنا زمن التغيير، بدأ عصر جديد يحمل ثقافة سياسية جديدة[3]. وماالانتفاضات الحاصلة إلا التجسيد الأولي لتلك الثقافة الجديدة التي يحملها الشباب من الخليج إلى المحيط. ومن سمات هذه الثقافة أنّها ليست بالفكر النخبوي أو السياسي النظري أو الإيديولوجي، كما أنّها شعبية وواقعية وعملية. فعلى سبيل المثال، كلّ المطالب الأساسية للانتفاضات تشير إلى تمسك المنتفضين بتحقيق المبادئ الإنسانية الجامعة على أرض الواقع.

وفي هذا الإطار، تبدو لنا سلمية تحركات الشباب على نقيض تام مع تاريخ الشعوب العربية. فثقافة العنف والإرهاب التي تربّت عليها أجيال كثيرة، طوى الشباب صفحتها واستبدلوها بثقافة السلام[4].

وفي إطار آخر، برهن الشباب أنّهم على درجة كبيرة من النضج السياسي والذكاء الجماعي، كما يتبين في ظاهرة الضغوط المستمرة لتحقيق أهداف الانتفاضة في كل من مصر وتونس ومن الأمثلة، ما جرى من تهديد شباب مصر للمجلس العسكري «بجمعة الغضب» أو «التظاهرات المليونية»، من أجل إلقاء القبض على الرئيس السابق حسني مبارك في البداية، ومن ثم محاكمته حينما وجدوا

---

[1]- طيّب تيزيني، «من الواقع العربي الراهن إلى مشروع نهضة تنويرية عربية»، شؤون عربية، ك1 ديسمبر 2000، ص 16

[2]- د. فؤاد مرعي، «التحوّلات الديموقراطية في العالم العربي ...»، جريدة السفير 5 أيار 2011 عدد 11879، ص 18.

[3]- يوسف الشوبري، "التحولات العربية ومفاجاءات الثورات" المستقبل العربي، (عدد 389، جويلية 2011)، ص 08.

[4]- طه جابر العلواني، اصلاح الفكر الإسلامي، (دار الهادي 2001)، ص 102.

تقاعساً عن الملاحقة. كذلك، ما حصل في اجتياح الشباب القادمين من الأرياف للعاصمة التونسية، وإسقاطهم حكومة محمد الغنوشي المؤقتة، وذلك بعد أسابيع من تعيينها من قبل الرئيس الهارب بن علي.

6 أهم نتائج الانتفاضات على الثقافة السياسية العربية:

أحدثت الانتفاضات العربية أثارا يمكن ذكر أهمها:

1. فتح إدراك الأفراد على أهمية الإمساك بمصائرهم

2.المشاركة بعد حالة اللامبالاة والتغييب، وهذا ماتضح خاصة في النموذج المصري حيث أن السلبية[1]. كانت أحد أهم خصائص الثقافة السياسية المصرية،وتم ذلك بترك الأمر للسلطة السياسية وشعور المواطنين بأنهم ليسوا طرفا في معادلة القوة السياسية،وفقدان الثقة في المؤسسات الحكومية وعدم الثقة في الأحزاب السياسية

3. بروز العديد من التعابير[2] كالحرية،العدالة،المساواة،الوحدة الوطنية،الديمقراطية، الدستور، دولة القانون والمؤسسات، تكافؤ الفرص، التعددية الحزبية، الدولة المدنية، الحريات الفردية، استقلالية القضاء، تحييد الجيش عن السياسة،الحد من سلطة الحاكم... لم تعد هذه التعابير حكرا على النخب السياسية، بل أصبحت متداولة عند عموم الناس

إن ميزة هذه الشعارات أنها لم تكن حصيلة ثورة فكرية سبقتها يكمن خلفها تراث من الفكر السياسي الواسع الذي يساهم في إرشاد الحراك الجاري،فعلى رغم مابات يعرف بثقافة الانترنيت إلا أن ماتطرحه انتفاضات العالم العربي يطرح تحديات تتجاوز هده الثقافة ومحدوديتها في تعيين البرامج وتشييد ثقافة سياسيةجديدة على أنقاض الثقافة السائدة[3]

4. تحول الثقافة من ثقافة عنيفة إلى ثقافة ترتكز على الحوار واحترام الآخر، والقبول بالتعددية، والتركيز على الطابع السلمي للانتفاضة [4]رغم الاستثناء الليبي[5]. هذا التحول يعتبر مفاجأة كبيرة خاصة في ظل ما تعرفه الدول العربية من سيادة وشرعية منطق القوة انطلاقا من أهم ثورات العالم وهي الثورة الفرنسية والروسية والأمريكية في القرنين 19 و20. استطاع الشباب أن يحسن استخدام أدواته من خلال استخدام الحقوق المشروعة في التظاهر وفقا للدستور، دونما اللجوء للعنف في المناداة بمطالبه في مواجهة النظام الحاكم، وفي ذات

---

(1)- خير الدين حسيب، "حول الربيع الديمقراطي العربي، الدروس المستفادة" المستقبل العربي (العدد 386، أفريل 2011)، ص 03.

(2)- عمرو الشوبكي، "الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي مصر، المغرب، لبنان، البحرين"، المستقبل العربي (العدد 384، فيفري 2011)، ص 107.

(3) – خالد غزال، الانتفاضات "وتجديد الثقافة السياسية الحياة"، العدد 20، ص 05.

(4) – ماجد الكيلاني، نورة في الثقافة السياسية أيضا 8 أفريل 2011.

(5) – مستل دن، ما أثبتته تونس ودحضته دول التعبير السياسي في العالم العربي
Article =42322&http://camegreendowment.org/arb/fa=stion □

الوقت استغل خطأ الأخير في الاعتماد علي قوات القمع ممثلة في الأجهزة المتنوعة التابعة لوزارة الداخلية، وفشله في التعامل مع مطالب سياسية من خلال الأداة الأمنية.وكمثال ماحدث في النموذج المصري فقد ظهر عنف النظام الحاكم وتجاوزات قوات الشرطة أو بلطجية ذلك النظام، ولعل ذلك كان واضحا فيما يسمي بواقعة الجمال والخيول واستخدام النظام الحاكم للبلطجية في تفريق المتظاهرين.

وتبرز المفاجأة أيضا أن هذه الانتفاضات حدثت في المنطقة العربية التي عرفت بكونها بيئات فوضى ونزاعات وحروب أهلية، يمكن إرجاع هذا التحول إلى دور الشباب الذي أصبح واثقا بذاته وقدراته، كما أن ثقافة العنف بينت عدم جدواها.

5 ظهورمشاركة المرأة من خلال الانتفاضات العربية من مختلف طبقات المجتمع، وهذا ما يعد تطورا إيجابيا في الثقافة السياسية للمرأة العربية، ومثال ذلك جائزة نوبل للسلام التي منحت لثلاث نساء من بينهن الناشطة اليمنية توكل كرمان.

6 القدرة التواصلية: أوضحت الانتفاضات العربية قدرة المواطنين على التواصل والتنظيم، كما اتضحت القدرة الفائقة على تداول المعلومات فيما بين الشباب لفضح ممارسات سلبية من جانب مؤسسات الحكم.

كما ظهر العدد الكبير من المجموعات الفرعية المشاركة رغم تباين إيديولوجياتها وتوجهاتها، إلا أن الشعارات جمعت بينهم وهذا ما ظهر خاصة في مصر[1].

خاتمة

إن الواقع العربي لا يعني عدم القدرة على تجاوز معوقاته، فلا بد أن تكون هناك وسائل وإمكانات للإصلاح، وإن إصلاح التعليم في العالم العربي يعتبر من أهم عناصر الإصلاح السياسي وتحديث الثقافة السلبية في أي من المجتمعات العربية، لكن يتطلب ذلك إصلاحا للواقع السياسي، واهتماما بالنخب المثقفة الذى يعتبر مفتاح التحرر من التخلف.

إن نجاح معالم الثقافة السياسة الجديدة مرهون باستمرار الانتفاضة كبديل لكن يبقى ذلك مرهون بالتغيرات الآنية والمستقبلة.

إن الثقافة السياسية متغير شديد الأهمية في تفسير واستشراف مستقبل الديمقراطية العربية على أكثر من مستوى، فنجاح قوى المعارضة الديمقراطية في الانتقال إلى نظم حكم ديمقراطية يتوقف على خلق ثقافة سياسية تحترم قيم الديمقراطية ومؤسساتها.

إن عملية إنشاء أو تغيير الثقافة السياسية، لا تتم بشكل فجائي وغير مؤسس كما حدث في الدول العربية وهذا ما ظهر في تخوف الشعب المصري والتونسي من سرقة الانتفاضة لمصالح خاصة –وهذا ماحدث فعليا في مصر- في ظل ميراث الثقافة العامة التي تطورت لدى الشعبين لعشرات السنين في ظل أنظمة حاكمة أفسدت ثقافة الشعب، وإنما تقوم

[1] – يعتبر قيمة جديدة، برزت خلال هذه الثورات وهذا ما يعكس حالة من الحرص على التغيير والإصلاح.

على عملية التنشئة السياسية أو نقل ثقافة المجتمع من جيل إلى آخر، ويقوم بهذا الدور عدد من الفواعل أهمها الأسرة والمدرسة والأحزاب السياسية ووسائل الإعلام المختلفة، وهذا لن يتم إلا إذا تبنت هذه الدول سبل نقد الثقافة التي كانت سائدة وهذا ما يعتبر مهمة صعبة وليست مستحيلة.

يتضح مما سبق أن هذه الانتفاضات قد بدأت في تطوير إرهاصات ثقافة سياسية ملائمة للديمقراطية، كما قدمت مطالب تسهم في إيجاد نظام سياسي ديمقراطي مثل صياغة دستور ديمقراطي، وتنظيم انتخابات حرة ونزيهة وعادلة، وحماية الحريات وحقوق الإنسان المختلفة إلا أن ذلك مرهون بحماية مكاسبها، والاتفاق بين القوى والأطراف السياسية علي عدم التعجل في خطف الثورة لتحقيق مصالح خاصة.

لا نستطيع القول بأن هذه الانتفاضات كلها ستنجح في تحقيق كل أهدافها وطموحاتها، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنها قد نجحت على الأقل في فتح الباب لإعادة النظر بشكل جذري وشامل في أساليب التعاطي مع المجتمعات العربية في كافة المجالات، وللتفكير في عقد اجتماعي جديد .

الهوامـش:

(1)G Almond .Afunctional approach to comparative politics »in G almond j coleman ed the politics of developping area .Princelon university 1960¨p64

(2)- عبد الله تركماني، الحوار المتمدن فقر السياسة العربية، العدد 2010/04/3074.25 ص2

(3) - عبد الله تركماني، الحوار المتمدن فقر السياسة العربية، ص.3

(4)- عامر ذياب التميمي الثقافة السياسية.

(5) - طيّب تيزيني، «من الواقع العربي الراهن إلى مشروع نهضة تنويرية عربية»، شؤون عربية، ك1 ديسمبر 2000، ص 61.

(6) - د. فؤاد مرعي، «التحوّلات الديموقراطية في العالم العربي ...»، جريدة السفير 5 أيار 2011 عدد 11879، ص 18.

(7) - يوسف الشوبري، "التحولات العربية ومفاجاءات الثورات" المستقبل العربي، (عدد 389، جويلية 2011)، ص 08.

(8) - طه جابر العلوني، إصلاح الفكر الإسلامي، (دار الهادي 2001)، ص 102.

(9) - خير الدين حسيب، "حول الربيع الديمقراطي العربي، الدروس المستفادة" المتقبل العربي (العدد 386، أفريل 2011)، ص 03.

(10) - عمرو الشوبكي، "الحركات الاحتجاجية في الوطن العربي مصر، المغرب، لبنان، البحرين"، المستقبل العربي (العدد 384، فيفري 2011)، ص 107.

(11) - خالد غزال، الانتفاضات "وتجديد الثقافة السياسية الحياة"، العدد 20، ص 05.

(12) - ماجد الكيلاني، نورة في الثقافة السياسية أيضا 8 أفريل 2011.

(13) - مستل دن، ما أثبتته تونس ودحضته دول التعبير السياسي في العالم العربي

13-
Article =42322&http://camegreendowment.org/arb/fa=stion

(14) - يعتبر قيمة جديدة، برزت خلال هذه الثورات وهذا ما يعكس حالة من الحرص على التغيير والإصلاح.